القمع والسرد
غرابة السرد وسخرية الواقع في رواية
"سنونوات كابول[1]"

د. كواري مبروك
مخبر الدراسات الصحراوية
جامعة طاهري محمد بشار

(إن الحياة بلا عناء لا تستحق أن تُعاش) حكمة سقراط

الخطاب الروائي جنس أدبي يعبر عن رؤية الناص. ويعبر الروائي من خلاله من منظور خاص ورؤية فنية شخصية تميزه وتطبع عمله بالفرادة. ولدراسة عمل أدبي يجب التعامل معه كظاهرة فنية لها وقعها الكامل، ولا يمكن تجزئتها إلى وحدات منفصلة عن بعضها، لأن الرواية عالم مليء بالمغامرات الفنية

الكتابة السردية تشتغل على اللغة انتقاء وتركيبا، لإنتاج الدلالة وتحقيق الأبعاد السيميائية. وجمالية اللغة السردية تتجلى في مدى انحرافها عن المعايير اللغوية وابتعادها عن المنطق وطقوس الحقيقة. وكلما حاولت ملامسة الوهم واللامنطق واللاحقيقة، وكانت موغلة في التخييل، اتسمت بالغرابة وأنتجت عنصر المفاجأة لدى المتلقي؛ الوقع الفني والجمالي؛ وحققت الشعرية السردية لأن الرواية ظاهرة متعددة الأساليب والألسن والأصوات، يكتشف الدارس فيها بعض الوحدات الأسلوبية اللامتجانسة، المفارقة والمختلفة الخاضعة لقواعد لسانية متعددة[2]

الرواية في العالم العربي تجسد القمع في الرؤية الفنية والفكرية وبذا تستعيد غرابة واستيلاب الإنسان العربي وتحمله على استعادة وعيه، وهذا ما يجعلها مدونة كبيرة للأثداء النفسية والاجتماعية والسياسية ' فالرواية هي ملحمة العصر الحديث وهي بديل عن الموت'[3] جمالية اللغة السردية تتمرأى في الخرق للمألوف، لنظام اللغة، وسننها، ومنطقها المشكل للبنيتها في أبعادها السيميوتركيبية الموجهة للمعنى والدلالة في النص الروائي. وتتجلى شعرية لغة السرد كلما ابتعدت عن الحقيقة، والنظام والقاعدة – المعيار– إن على مستوى منطق الفكر، أو على مستوى التعبير اللغوي– الانتقاء والتركيب– وهذا ما يضمن للغة الخطاب الروائي فرادتها الفنية في تشكيل النص وفي وقعها الجمالي في المتلقي. أين تتضافر تقنية الخطاب، نظام النص وحمولته التعبيرية والفكرية، وضبابية التخييل، وشعرية اللغة في خلق جو آسر للمتلقي، يجعله يندفع مستسلماً لمتابعة هذا الفضاء السردي، دون مقاومة طرح السؤال. وهنا لحظة المكاشفة والاستلاب. فيحدث الأسر في فضاء التقاء الباث بالمتلقي بالضرورة، أين يتم التجاوب الوجداني بينهما–الباث والمتلقي-. حيث تنبجس عن هذه اللحظة متعة الاستلاب أو النفور، كما يقول روبرت شولتز، إنك بعد أن تتلقى الخطاب الروائي، فقد خبرت شيئاً أي بصمت بحمولته الوجدانية والفكرية. وهنا سر الخطاب السردي في خلق بؤرة التجاوب الجمالي الوجداني..

السرد والقمع:

النص الأدبي بنية إبداعية تفرزها بنية اجتماعية، لأن كل الأجناس الإبداعية هي محصلة لرؤية عالم متولدة عن واقع سوسيوثقافي مهيمن على مفاصل مقومات المجتمع[4]

عنف الواقع في رواية "سنونوات كابول"

رواية سنونوات كابول وثيقة وتصف واقع الخوف والاستبداد العنف والقتل، في مدينة كابول. وتدين هذا الوضع. تتحسس هذا العنف والاضطهاد، الذي رصدته كإكراه نفسي وجسدي ولفظي مسلط على كل طبقات المجتمع الأفغاني في ظل حكم طالبان.

تفاجئنا رواية "سنونوات كابول" بقدرتها على رسم لوحة متكاملة متداخلة التضاريس تعبر عن قسوة فترة تاريخية كان ميدانها الفسيح كابول، رمز الحضارة الأفغانية، المدينة المدمرة المحاصرة بين قوتين، قوة تدعو إلى العودة إلى الماضي بكل ثقله الفكري والوجداني وأخرى تنشد التخلي عن هذا الماضي باعتباره رزءاً يجب التخلص منه. الرواية مشهد تبرز أحداث وقعت في مدينة كابول. تكشف الغطاء عن عالم مترع بالعنف والقسوة. العنف والقسوة والدمار والقتل و... سمات جسده السرد في هذه الرواية من بدايتها إلى نهايتها. هذه اللوحة البانورامية تجسد جزئية صغيرة ؛ من أحداث مهولة وقعت؛ في قالب قصصي بوليسي مشوق، بالغ الوضوح، كثير العمق والدلالات، بلغة آسرة، ووصف ثاقب عبر رؤية فكرية شديدة الوضوح، وصوت سردي طاغ على جميع الأصوات، التي تدور في فلكه لتعطيه فرادته وتميزه في هذا العمل، بسطوته المهيمنة على جميع الشخوص والأحداث، منذ العتبة الأولى لهذا النص إلى آخر جملة فيه. أين تُعرض موضوعة السلطة، بما هي تاريخ إسلامي يشمل عدة أعراق، أبدع مجموعة من الانكسارات والانتصارات الممتدة عبر حقب، تولدت عنها سلط أخرى أشد وقعا على الإنسان العربي، والمسلم. فكان الصراع الأبدي على السلطة التي أنتجت التسلط، والاستبداد، وقهر الشعوب وإذلالها للحكام، تحت أي غطاء، وبأية وسيلة أو مبرر. كل ذلك يقدمه الراوي عبر تقنية المحاكاة الساخرة من ممارسات تراثية قائمة على جمالية التوتر، والتعدد والتجريب والمفارقة اللغوية الثخنة. لأنه متأثر عادة بأسلوب الغير ولغاته المتواجدة داخل عمله الروائي، فالاختلاط الحواري، هو الذي يمنح اللغة مقومات وجودها ما دامت لا تحيا بغير الحوار[5]

ستحاول هذه المقاربة كشف النسيج السردي الذي يظهر علاقة عنف الواقع والسخرية اللغوية في تشكيل فضاء سردي، أين تتوارى نوايا الكاتب، وتخفت حدتها خلف ستار التعدد اللغوي. ومع ذلك، فهي لا تقلل بأي حال من قصديته العامة العميقة، أي لا تنقص من الدلالة الأيديولوجية عبر رؤية فنية في رواية معاصرة والقبضُ على لعبة القوانين والقواعد التي تخفيها لأن حياة اللغة مفعمة بالصلات الحوارية[6]. وتكون بداية الاشتغال من الخارج إلى داخل النص منطلقين من الجزء إلى الكل .لأن الإنسان عندما يقرأ العمل الأدبي فهو يقرأ فيه نفسه[7]

1- العتبات النصية: تمكننا قراءة العتبات في استجلاء طبيعة النصوص، وفك ترميزاتها، ومن بين مجموع العتبات نتناول: العنوان، وأيقونة صورة الغلاف.

أ- عتبة العنوان:

العنوان أولى العتبات النصية الدالة والمميزة لنص عن آخر، وهي أول ما يواجه القارئ، ويوجهه ويفتح أفقه على كون أدبي معين، محفزا إياه على القراءة قصد إشباع توقعاته الجمالية والفنية. عنوان رواية: "سنونوات كابول" يدفعنا إلى استجلاء بعض المسارات الدلالية التي تنبعث تراتبيا لتشكل مركبا اسميا مضمر الخبر ، المتعلق بالمضاف والمضاف إليه، ليغدو عنوانا غير تام إلا بتقدير احتمال الخبر: واقع أو كائن، المتعلق بالمضاف والمضاف إليه. إن العنوان يحيلنا على فكرة الصراع الساخر من الموجود، ومن السلطة السياسية، التي شكلت هذا النمط الثقافي في كابول. وأهم عنصر في مقوماته السميائية إحالته على رجال السلطة، الذين يمارسون فعل التغيير في الواقع، دون مراعاة لمن لا يسايرونهم هذا التوجه الفكري، وموقف السارد الذي قدم المرأة الأفغانية في هذا الملفوظ اللساني في صورة طائر أسود، يحيل على الكآبة والانغلاق. القهر والجور ومصادرة الحريات. فهو لن يخرج بأي شكل من الأشكال الإحالة الدلالية عن تدبير علاقة الحاكم بالمحكوم، وإذا ما ربطنا هذه الإمكانات التأويلية التي

يقترحها علينا العنوان بالتحققات النصية والمتخيل القصصي العام في الرواية، لكون موضوعة السلطة تؤثث نسيجها النصي، مرصودة من زاوية واحدة. والجمالية، فأبعاده السيميائية مهيمنة على نسيج النص. وهذا ما سنلمسه في مفاصل كل جزء ندرسه.

ب - عتبة أيقونة صورة الغلاف:

تعد الأيقونة في نظرة بورس إشارة، تمتلك الخصائص التي تجعلها دالة، لذلك قصد الروائي، أو دار النشر إنجاز أيقونة صورة الغلاف، بشكل يشي بحزمة من الدوال، تحيل على دلالات لا متناهية، فهي مشحونة بجملة من الإيحات، تجعل المتلقي في موضع فرز لها، للوقوف على ملابسات هذه الصورة، التي يهيمن على ملامحها الإبهام والغموض من الوهلة الأولى. وهذه أول علامة فارقة تؤكد فجائعية هذا النص الروائي، ودرامية أحداثه.هي صورة لمجموعة من النسوة يرتدين الشادو[8] بلون أزرق يميل إلى السواد، من زاوية خلفية مطموسة الملامح، فلا شيء يظهر إلا الظلام والسواد. ملامح باهتة لمجموعة من النسوة متوجهات إلى أفق غامض.أبعاده مطموسة. هذه الدلالات المنبعثة من ملاحظة الصورة تؤكد ارتباطها الوثيق بمتن النص الروائي، الذي يكشف عنف واقع مرهون للقتل والجلد، وانتهاك الحريات. وفق تراتبية العنف والعنف المضاد التي بفرضها الواقع. نرصدها من خلال:

- أن هذا الطمس للصورة، إشارة إلى الاحتراق، والألم والمجاهدة القاسية المرتبطة بذاتية المبدع في علاقته بين وجوده الخاص، وبين ما هو موجود في هذه البقعة من المعمورة بكل زخمها التاريخي، وعفونة واقعها.
- توحي أيضا على موقفه الرافض لهذا النمط من السلوك، والثقافة،التي لها امتداد في مكوناته السيكواجتماعية التي تحقق عبر المعاناة من خلال الحفر في ذاكرة مفعمة بالانكسارات، وتاريخ ماض، مليء بالظلم والقمع
- الصورة إحالة على ذلك البعد المعرفي الثاوي في ثنايا النص من أجل إضاءة العوالم المعتمة عبر ومضات سريعة ومكثفة، تعبر عن مواقف كاتبها الرافض لهذا الواقع المظلم بحثا عن تدرج في نور الحقيقة.
- هي شهادة حية على واقع درامي، بتداعياته المؤلمة، المفجعة، القاسية على إنسان هذه البقعة من جغرافيا العالم السرد والقمع:

السرد الروائي في هذا النص يقدم لنا نماذج واضحة في تعامل الحاكم مع شخوص الرواية؛ عامة الناس؛ وحملهم على الاقتناع بأفكارهم ولو بالقوة والحد في الملاعب أمام الناس لإرهابهم ..رواية "سنونوات كابول" تجسد ظاهرة القمع في أبشع صورها. تكشف مشاهد سوداء مرعبة قائمة على القمع والقهر. تتجلى في أبشع الصور الرجم بالحجارة حتى الموت، الإعدام بالذبح أو رمياً بالرصاص أو شنقاً. ويحدث كل ذلك ويجري في احتفالية رهيبة بحضور الجمهور في الساحات أو الملاعب ؟؟ إن النهج الذي اتخذه ياسمينة خضرا في هذا النص يقدم لنا نوعا من الغرابة الفجائعية والواقعية السوداء التي تبتعد فيها المغامرة الإنسانية عن الواقع المألوف لتصبح مأساة يعبر عنها بحوادث رهيبة ...الرواية (بنية إبداعية متولدة عن بنية اجتماعية..محددة لطبقة اجتماعية بعينها[9] تبرز المستور في العلاقات الاجتماعية الإنسانية بين الحاكم والمحكوم عتبة كلمة الناشر:

يقدم الناشر الرواية تقديماً عجائبياً، يبين المأساة التي تسري في ربوع كابول المدينة المنكوبة، التي تكالبت عليه المحن والإحن طيلة ربع قرن من الزمن في الفترة الممتدة مابين **2003/1978**، ولدت القمع والبطش والاستسلام للقمع الممنهج المسلط على سكان كابول من خلال وصف أحداث وقعت فيها ناجمة عن الصراع على السلطة الذي تولد عنه الدمار الشامل للبلاد والعباد.

والروائي بتصيده لظاهرة القمع الفكري بالتصفية الجسدية الممارسة في النص الروائي يستعيد القارئ غربة واستلاب الإنسان المسلم في هذه المدينة الملعونة ليقف على الحقائق المرعبة المدمرة للتركيبة النفسية والاجتماعية والسياسية لسكانها؟ إن هذه الرواية صرخة في وجه الموت الذي جثم على سكان كابول أيام الملالي.

(في هذه المدينة القابعة تحت القيظ، بين خراب النكبة وخراب العقول .يبحث رجلان وامرأتان عن معنى لحياتهم: حضري مخلوع، محامية منعت من ممارسة مهنتها، سجان يتقلص شيئاً فشيئاً في ظل تنفيذ الإعدامات العمومية وزوجة تصارع مرضاً عضالاً. وخلال رحلتهم بحثاً عن الكرامة الإنسانية. يعيشون عذاب أمة صدمتها الحروب وجنون أهلها. سُلمت لتعاويذ زعمائها الروحيين ولطغيان استبداد الطالبان. ومع ذلك، في وقت بدا فيه اليأس مطلقاً. رفض الحب الاستسلام واستنجد بالمعجزة. ولكن ما قيمة المعجزة في بلد تكون فيه الأفراح أكثر رعباً وشراسة من القتل بالرجم) كلمة الناشر في الغلاف.

من خلال هذه الكلمة المدوية الصاخبة الرافضة لكل أشكال الظلم والقسوة يصف الروائي المدينة اللغز ويبرز

ما أصابها من خراب عمراني وخوار وجداني، في نفوس ساكنتها واصفاً تراكماتها الحضارية بأحيائها الشعبية ومآذنها ومفاهيمها المقهورة بعطر الذكريات وشوارعها ودورها المزدحمة بالمليشيات الناهرة الزاجرة المخيفة ...فالقانون الجمالي الذي يتحكم في مسار وتوجهات بنية النص صوت الحزن والأسى المهيمنة على أبطال هذا النص الروائي[10] خطاب السلطة والقمع:

الروائي يستحضر الصور البالغة التأثير عالما قاتماً وحشياً بقدمه ببرودة كافكا وبأسلوب بصري يمجه الذوق السليم وان الحقيقة الفنية تستحضر بعريها المتعمد القاسي لقلب موازين الأحداث'[11]. في كشف المستور وإبراز مأساتين رئيسيتين أفرزهم واقع كابول. البطلة المحامية والسجان المجاهد؟. مأساة اجتماعية، ومأساة وجودية فأينما اتجه السرد، فإن وقع المآسي يصدمك. ففي وصف المدينة التي احتضنت أحداث هذا العالم الروائي الغريب،يقدمها عارية، مرعوبة من الذكرى. لا أثر لحياة تذكر في بلد (تتنافس فيه المقابر مع الأراضي الشاغرة حول التوسع) ص **92**. وتبلغ السخرية مداها، عندما ينطلق السارد في رصف مناقب هذه المدينة وما يعتورها من آلام وأحزان (**في كابول فقد صنفت الأفراح ضمن المحرمات الكبرى**)[12] ولم يتوقف السرد عند هذه اللفتة الساخرة، حتى الضحك ممنوع، (ممنوع الضحك في الشوارع)[12] وهذه قمة سخرية السلطة الحاكمة، التي تفرض قوانين جائرة، مقززة. لا تستقيم مع أبسط حقوق الإنسان. ثم يبالغ في سرد ساخر على لسان البطل السجان المتأفف من وضعه المنهار نفسيا واجتماعيا في(عالم معتم وجاحد، في مدينة منقطعة تماما، مزينة بمنصات المشانق)الرواية ص. **55** وكأني بالسارد يحاول رصد ما يزين هذه المدينة فلم يجد إلا المشانق؟ ويصل السرد مداه، وينفث كل ما لديه من وصف، ساخر مدمر يعري تاريخها ويبرز سطوت المدينة على كل ماله علاقة بها عبر التاريخ (لقد نفذت الإعدام في تاريخها على الساحة العمومية، وضحت بأسماء شوارعها، قرابين في محارق مرعبة، وسحقت نصبها التذكارية بالمتفجرات وألغت وعودها التي أمضاها مؤسسوها بدماء الأعداء. اليوم، أعداء كابول هم أبناؤها الذين تنكروا لأسلافهم وشوهوا نفوسهم كي لا يشبهوا أحداً)ص **110/109**...

ثم ترتحل بنا كاميرا السرد إلى الطواف في شوارع كابول ليصور الشارع بكل عفونته (وسط السيارات وحول المقاهي والمطاعم، يتناثر مئات الأطفال بمناخرهم المخضرة وحدقات أعينهم المتقدة تائهون ... يحس عتيق دوما بضيق حينما يراهم يغزون المدينة، بلا رحمة، أشبه بأسراب الكلاب التي تتوافد ولا يعرف احد من أين، متنقلة من مزبلة إلى مفرغة، لينتهي بها الأمر إلى احتلال الحاضرة وإيقاف السكان عند حدهم.)ص**86 87.**

ويسترسل الوصف الساخر من هذا الواقع الأليم، الذي أعقب أحداث ما بعد سقوط السوفيت، وخروجهم من كابول، وتولي الملالي الحكم، الذي أفرز واقعاً مغايراً، وثقافة لها وقعها على مفاصل الحياة اليومية لسكان هذه المدينة فعلى لسان عتيق المجاهد السجان نلمس نفسية هذا البطل وكيف يرى ويقم هذا الواقع الجديد

الذي ساهم في إنتاجه:

(يمقت عتيق شوكت الأشخاص المسنين، خاصة القاطنين بالحي لان اغلبهم من المنبوذين الوسخين، المتسولين التافهين، الذين يقضون أيامهم في ترتيل دعوات مشؤومة، ويتحسسون بأيديهم الضامرة أسمال المارين. ولا يتردد هؤلاء المنبوذون من الانقضاض بقوة كي يخطفوا بعض اللقم. لهذا السبب بالذات يمقتهم عتيق فكلما وجدهم إلى جانبه كان يؤدي صلاته بتقزز. لأنه لا يحب تأوهاتهم عند السجود، ولا غفوتهم المرضية خلال الخطبة. فهم في نظره ليسوا إلا جثثا أهملها حفارو القبور، قذرون ومربكون، بعيونهم الرميصة، وأفواههم المهشمة وروائح الجيفة التي تنبعث منهم..) ص**45/ 46**

في هذا المقطع السردي يعطي للقارئ وقعا دلاليا خاصا حول واقع ما بعد خروج السوفيت، وكيف ينظر الإنسان الذي شارك في تغيير الحكم إلة الواقع الجديد وكيف يحكم على مخلفاته. ويعرج السارد على أهم قضية عالجتها الرواية بأسلوب ساخر ولغة أدبية ملتوية (لا تجعلنا نسمع أصوات الآخرين فقط، بل هي اللغة الأخرى التي تكاد تتخصص في إسماع ذلك الآخر الموجود في الداخل، في داخل الذات الكاتبة والقارئة)[13]

(القضاة القابعون بداخل بشاعتهم المبجلة؛ الأشخاص الغرباء الذين يستعدون لاحتلال الملعب يوم الجمعة، بزعيقهم وتلهفهن الوقح؛ الضيوف الأجلاء الذين سيتلذذون بتنفيذ الإعدامات العمومية وهم يحيون تطبيق أحكام الشريعة باليد نفسها التي تمش الذباب، ويأمرون بإبعاد الجثث بالحركة نفسها التي تبارك حماي الجلادين الساخر جميعهم، لمن فيهم كابول الملعونة التي تعلّم يوميا القتل وكفن الحياة، ذلك أن الأفراح فوق هذه الأقاليم أضحت أكثر بشاعة من الرجم)ص **164/163**

(تعالى هرج ومرج في جناح من المصطرع فتلاه نعيق مشؤوم .دفع حراس "ملعوناً" نحو مصيره حيث ينتظره جلاد في يده خنجر. لم يقتض تنفيذ الإعدام إلا حركات طفيفة. قُيد الرجل وأجبر على الجثو على ركبتيه. تلألأ نصل الخنجر قبل أن يقطع رقبته. في المدرجات، انفجرت تصفيقات متفرقة تنوه بمهارة الجلاد)ص**186**

هذه شهادة ساخرة في أسلوب سردي ساخر، يدين واقع متفسخ، مؤسس على القتل والشنق والدمار...

الهوامش

1 - les hirondelles de Kaboul رواية للكاتب الجزائري ياسمينة خضرا صدرت باللغة الفرنسية وترجمها إلى العربية محمد ساري تحت عنوان سنونوات كابول عن دار الفرابي بيروت الطبعة **1** سنة **2007**

2–عبد الرحمن أبو عوف: القمع في الخطاب الروائي العربي المقدمة ص:ج ط**1999** القاهرة

3-محمد برادة: التعدد اللغوي في الرواية العربية، مجلة مواقف ع **69** خريف **1992** ص **167.**

4- عبد الرحمن أبو عوف: القمع في الخطاب الروائي العربي ص: **7** ط**1999** القاهرة

5- ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة: ت. محمد البكري، دار توبقال للنشر –البيضاء– **1986** ص **267.**

6- ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ت محمد برادة دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة **1987** ص: **32**

7 - حسن المؤذن: الرواية والتحليل النصي. منشورات الاختلاف ط **2009** ص **15**

8 - لباس خاص يغطي كل جسد المرأة من رأسها إلى أخمص قدميها وأمام العينين يوضع فتحات صغيرة للرؤية

9 -عبد الرحمن أبو عوف: القمع في الخطاب الروائي العربي القاهرة **1999** ص**7**

10 - العنف في الخطاب الروائي. ص: **66**

11- العنف في الخطاب الروائي ص**152**

12 - الرواية ص **37** ...**12** - الرواية ص**94**

13 - حسن المؤذن: الرواية والتحليل النفسي منشورات الاختلاف ط**1**. **2009** ص **10**